

ردود فعل المغاربة حيال الاحتلال البرتغالي "منطقة دكالة أنموذجا" 1769-1508

أ. أنس الصنهاجي ظهر المهرز-فاس المغرب

الملخص

أسست منطقة دكالة عبر التاريخ لذاكرة المقاومة المحلية، وجسدت ما تجتمع فيه كل المناطق المغربية بقبائلها فيما تعلق بمواجهة الأجنبي وروح الجهاد التي استمرت قائمة دون نقصان، فأى تقييم لحركة الجهاد والمقاومة الدكالية، يجب أن يخضع لمنطق مطابقتها مع وسطها الطبيعي وظروفها السوسيو اقتصادية وتركيبها البشرية...، وكل العناصر المشكلة للذات الجمعية، حتى لا نسقط ضحية الأحكام القيمية والأحكام الجاهزة التي يمكنها تبخيس التاريخ المحلي والجهوي. وتحتفي القضايا التي حاولت الدراسة إبرازها بأهمية وضرورة كتابة التاريخ الجهوي والحفاظ على موروثه بشكل عام دعما للذاكرة والمجتمع، خصوصا ونحن في إطار خطاب الجهوية الذي يؤمن بخصوصيات المناطق ويحترم ما يميزها، ودكالة مثلت ولا زالت وحدة جهوية متميزة بكل تجليات التميز (الطبيعي - الاقتصادي - الاجتماعي - الثقافي ...).

مقدمة:

حرص البرتغال منذ إخضاع منطقة دكالة¹ لسلطوتهم ونفوذهم، على استنزاف مقدراتها دون إلجائهم إلى استعمارها وضبطها لحكمهم المباشر، فضعف كنتلهم الديمغرافية مقارنة مع شساعة امبراطوريتهم المترامية الأطراف، وتشدت مجهودهم على المستعمرات القائمة، خاصة الموجودة جنوب القارة الأمريكية، كانت تضطروهم لنهج إستراتيجية الحكم غير المباشر عن طريق تجنيد أعيان المنطقة المنتفعين من العلائق البرتغالية وتجارها أو الطامعين في السلطة أو الطامحين للمحافظة عليها، فلم تتدخل ملوكهم عسكرياً في المنطقة، إلا حينما يتوجسون من انسياب المنطقة من تحتهم، أو انفراطها عن قبضتهم، ولما فشلوا في صناعة عملاء محليين ولاؤهم خالص للتاج البرتغالي، تيقنوا أن لا مندوحة من اكتساح المنطقة وإحاقها بالإمبراطورية.

أولاً- ردود فعل قبائل دكالة إزاء الاستعمار البرتغالي للمنطقة

ما إن احتلت المنطقة، حتى أعلنت القبائل الدكالية الجهاد ضد المستعمر، وأباح فقهاؤها وشيوخها هدر دم كل من يتعامل مع المحتل، أو حتى من يطيب له القطن في الثغور المغتصبة. فما إن تم استعمار مدينة أسفي سنة 1508م حتى نادت قبائل دكالة والشياظمة والحوز بالجهاد لتحريرها، وبالفعل قام فرسان هذه القبائل بضرب حصار على المدينة بأعداد قوامها 200 ألف مجاهد، يوم الخامس من دجنبر/ديسمبر سنة 1510م، ولما أدركوا أن الأيبيريين يمدونهم بما يمنعهم، وأن الحصار بات غير ذي جدوى في ظل هذا المعطى، قرروا الهجوم على الثغر لحسم المعركة وطرد المحتل، تأسيا بما تم بمنطقة المغدور حين تم افتتاحها دون عون رسمي على يد قبائل جنوب التانسيفت، وبعد هجومين متتاليين يومي 29 و30 دجنبر/ديسمبر من السنة نفسها، اقتنع المحاصرون أن السور يجعل محتمتهم مستحيلة، خاصة حين وصلوا إليه، وبدا لهم أن قبته يتطلب عتادا ثقيل لا يملكونه، ما اضطرهم إلى نقض الحصار يوم 31 دجنبر/ديسمبر من السنة نفسها²

وآتست العمليات الجهادية بدكالة بوسائلها البسيطة، لكنها كانت مفعمة بالفورة والفعالية، تسري في سرعة خاطفة تحت جنح المفاجأة لضرب أهدافها، في سرايا أو مجموعات منظمة نهجها شبيه بنهج حروب العصابات³.

وقد تمكن البرتغال في ظروف عرف فيه المغرب ضعف الدولة المركزية، وتوزعه في شتات بين قوى ضعيفة متناحرة حول السلطة والنفوذ، وتنافسها في مخاطبة ود المحتل عندما يشتد الصراع بينها، من القضاء السريع على صمود المقاومة الدكالية، وإرغام القبائل على الخضوع قهراً لسلطة الغزاة، والشاهد، تأكيد "كويش"⁴ أن قبائل دكالة عن بكرة أبيها رضخت بالترهيب والتشكيل، بعد أن أخفقت مجاهداتها اليومية في صد غارات البرتغال⁵.

وكانت الغريبة من المناطق الأولى التي قاومت المحتل، ودعت إلى حصار آسفي لتحريرها سنة 1510م، فكان جزاؤها بعد تسريح المحاصرين، تعرضها لعدة غارات أفنت الكثير من أهلها، وظلت صامدة حتى سنة 1512م، إثر انصياع جزء منها إلى إرادة المستعمر، وتسليمها لأبناء شيوخها وأعيانها رهائن لديه⁶، والشاهد ما وصفه "كويش" في مشهد تضرع عيسى بن أبي بكر شيخ قبيلة الغريبة وهو حارّ تحت قديمي القبطان "نونو فرناند دي أنايد" (Nuno Fernandes de Ataide) مع سبعة من أعيان القبيلة، يستعطفونه أملا في ثنيه عن استباحة مضاربهم⁷، والحالة نفسها أوردها الوزان مثيرا مسألة الشيوخ الذين كانوا يرغمون على الامتثال والرضوخ لدرء الغارات البرتغالية الوحشية⁸، لكن ما إن تنام إلى مسامعهم بالجيش الوطاسي القادم لطرد الاحتلال وردّه على أعقابها سنة 1514م، حتى نفروا إليه والأمل يحدوهم في الخلاص من عسف المحتل وأزلامه، وفي المعركة (معركة الجمعة) استشهد سبعة من شيوخها، ولم يكثرث الشيخ كريمات الذي شارك في المعركة، لمصير أنجاله الذي سلمهم رهائن في ثغر آسفي، وآثر العصيان والالتحاق بالجيش الوطاسي، والفعل نفسه قامت به قبيلة أولاد عمران الجنوبية التي أعلنت عصيانها بعد أن تعهدت لقبطان أزموور بالسكون والامتثال، فقتلت الشيخ الذي فُرض على قبيلتها وأسرت ثلاثة عشر- برتغاليا كانوا يعززون سلطته⁹، بل يمكن القول إن القبائل الدكالية قاطبة التي قارعت الاحتلال البرتغالي واضطرت للرضوخ، انضمت للجيش الوطاسي، والشاهد، الرسالة التي بعثها الملك إيمينويل إلى قبطان آسفي سنة 1514م، يأمره بتعيين الشيوخ المعادين للوطاسيين في مناصب قيادية، فكان جوابه ينفي وجود أيّا منهم¹⁰، لكن إعلان الوطاسيين والهناتيين الانسحاب من مواجهة البرتغال حيناً، و جنوحهم إلى عقد هدنة طويلة الأمد مع قوادهم أحيان أخرى، لم تكن تترك للدكاليين أي خيار في ظل واقع ضعف الإمكانيات غير خيار العودة من جديد وبشروط أكثر قسوة لرفقة الاحتلال، فحين أزمع الناصر الكديد سنة 1514م العودة إلى فاس دون أن تحقق الحملة الأهداف المرجوة، عادت بعض القبائل تلتمس العفو من المحتل للسلم من انتقامه، فاشترط عليها مهاجمة جيش بني وطاس للتدليل على الندم والولاء¹¹، أما التي أفنت الاستسلام للعدو فقد آثرت هجرة أراضيها وترك محاصيلها وأرزاقها، والالتجاء إلى قبائل حليفة أو إلى مناطق تحت السلطة الوطاسية أو الهنتاتية طلبا للنجاة، غير أن التشرّد والجوع وشح الأقوات في القبائل المستضيفة، كانت ترغم بعضها على العودة إلى مضاربها والقبول على مضمض بالأمر الواقع¹²، وعقب مقتل العميل يحيي أوتغوفت ثارت دكالة من جديد على سلطة الاحتلال، وفر بعضها إلى منطقة أنماي ينتظر العون الوطاسي بعد أسرها عددا من البرتغاليين، ولما تيقنت من خذلان الوطاسيين لها، لم يسعها سوى طلب الصلح من جديد، والمفاوضة بما لديها من الأسرى لاقضاء شر التنكيل والانتقام، وأما القبائل الأخرى فقد فصلت الانصراف عن النفوذ البرتغالي والعيش في كنف السلطة الوطاسية بسهولة سايس¹³، وهذا ما يحيل إلى فهم أن خضوع قبائل دكالة، جاء نتيجة الفراغ السياسي وغياب

كيان قادر على تأطيرها وتنظيمها ورص صفوفها في جبهة واحدة ضد الغازي، لكن ما إن دخل السعديون إلى مراكش وأظهروا قوة في مجابهة البرتغال، حتى بادرت القبائل الدكالية إلى الانقلاب على المحتل وإبداء استعدادها في مناجزته تحت قيادة وتوجيهات السعديين¹⁴. وكان شيوخ القبائل الدكالية البعيدة أو الواقعة على حواف مدينتي أزموور ومازيغن، من أكثر القبائل عصيانا وتمردا على الاحتلال البرتغالي، ومن أمثالهم الشيخ علي مومن والشيخ أويشو¹⁵، الأمر الذي كان يعرض مثل هذه القبائل لهجمات تأديبية غاية في البربرية، كما سرى على أولاد مطاوع وقرتي "بنكير" و"تافوف"، لدرجة أن الدكاليين كانوا يفضلون التزدي من أعالي الصروح والشواهد، من السقوط في يد البرتغال الذين اشتبهوا بالتفنن في تعذيب الأسرى قبل قتلهم¹⁶، وقد تغيا المحتل من الإثخان في معاقبة القبائل الآبقة، ترويع صنوئها الباخعة وترهيبها من الخروج عن سلطتها أو التفكير في الانفساق عن طوعها وإرادتها، ولم يكن العنف والترويع الأداة الإستراتيجية الوحيدة التي وظفتها الطغمة المحتلة لتطويع القبائل، بل جدت في تجنيد الجواسيس والعملاء من مختلف شرائح المجتمع الدكالي وإجزال العطاء لها، لإخطارها بتحركات المجاهدين وتدجينها للقبائل، فالرشاوى أدت أدوارا وازنة في مخطط الاحتلال، فبذلها بسخاء مثلا حافظ بها قبطان أزموور على ولاء بعض القبائل له، حالما دخل الجيش الوطاسي لدكالة سنة 1514م، ومقابل 50 أوقية لكل شيخ من شيوخ أولاد عمران تم إغراؤهم للعدول عن ترمدهم والدخول في طاعته. في حين قدم القبطان "أتايد" لوائش دكالي 8000 ريال جزاء إبلاغه بمواقع فسطاط الناصر الهنتاقي المبتوثة على المجال الدكالي سنة 1541م، وتسلم شيخ الغربية ميمون ثلاثة أمتار من الكتان أي ما يساوي 900 ريال، بينما توصل أحد أعيان السور القديم بنصف رطل من القرتقل، في الوقت الذي تسلم فيه شيخ عبدة حسون 2420 ريال وأرطال من التين المجفف، لمعلومات قدموها للبرتغال سنة 1509م¹⁷.

ثانيا-مظاهر من مقاومة قبائل دكالية للاحتلال البرتغالي

استطاع البرتغال بفضل تفوقهم المادي وتباين الإمكانيات العسكرية بينهم وبين الدكاليين، من إخضاع حواضر المنطقة وقبائلها لواقع الاستعمار، ففي الوقت الذي كانت فيه الساكنة تدافع بوسائل قتالية بسيطة من قبيل الفؤوس والسيوف والنبال والرماح والحجارة بأجساد عارية، وأوزاع في الغالب غير مدربة أو منظمة، كان المحتل يملك جيشا نظاميا مدربا مُدججا بدروع حديدية واقية، وأسلحة نارية فتاكة وأصناف متطورة من البنادق والمدافع والمصدات. والحق أن قبائل دكالة لم تأل جهدا في مواجهة المحتل رغم الفوارق الصارخة بينها في موازين القوة، حيث أُلجئوا للمحتل غير ما مرة إلى الاندحار عن ساحة المواجهة بقصفه بأكوام من الأكياس المحشوة بالعقارب¹⁸ وخلايا النحل¹⁹.

وكان غالبا ما يتصيد الدكاليون غرماهم البرتغال في مراتع الصيد، على طول نهر أم الربيع، حيث كانوا يجدونها وسيلة ليقايضوا أسراهم، أو للانتقام وإشفاء الغليل عما اقترفت أيديهم من تقتيل وتذبيح

وتعذيب لكل من رفض الخنوع لهم، كما كانوا يتفننون في نصب الكيائن والمشارك لمواكبهم وقوافلهم، قصد نهبا وأسر من فيها، وحصر- الإمدادات الغذائية عنهم، وإسكان الرهبة في نفوسهم وتضييق العيش عليهم، وكلما أسوا ضعف الحراسة على المراكب البرتغالية الراسية فوق نهر أم الربيع، مالوا عليها يهبونها ويخربونها، والشيء نفسه سحبه على محاصيلهم الزراعية، إذ كانوا يأتون عليها حرقا وتدميرا، أو يسرقونها عنوة إن كانت اللحظة سانحة. هذه الغارات المتردفة جعلت الحاكم العسكري لأزمور يطلب العون من قائد سلا أملا في كبح تنامي وبال الأنشطة الجهادية المتردفة، وكتب حاسما²⁰. وقد اشتهرت قبيلة أولاد يعقوب وشيخها ناصر بودومة بهذا النوع من الجهاد، فعمليات الاختطاف الغفيرة التي تحدث قرب نهر أم الربيع في صفوف البرتغال وأعاونهم، كانت باعتراف قبطان ثغر أزمور، تركه في حالة استنفار قصوى²¹.

ومن أهم العمليات الجهادية في دكالة التي رجحت الكيان الغاصب في المنطقة، مقتل القائد العسكري وحاكم دكالة الحمراء المدعو "نونو فرناندش دي أتايد" -الذي طبق صيته آفاق المغرب برمته، بما اشتهر به من ممارسات وحشية ضد ساكنة دكالة وأحوازها- على يد شيخ قبيلة أولاد عمران الجنوبية رحو بن شحموط سنة 1516م، فبعد أن رفضت قبيلته الخنوع للقائد البرتغالي، قام هذا الأخير في تجريدة كبيرة بالإغارة عليها ونهبها، وسُوق من قدر عليهم من الرجال والنساء والأطفال أسرى مكبلين، وضمن هؤلاء كانت زوجة الشيخ رحو الذي عزم على تحريرها مع الباقي، وما إن كفكف صفوفه حتى ركب ظهورهم، وطفق يتحين المناسبة لفق أسرى القبيلة، دون أن يفكر في الإقدام على مناوئتهم في مواجهة مباشرة، ولما أحسوا باقتفائه أثرهم، دبوا للإيقاع به بدفعه للمواجهة، عن طريق استنشاطة غضبه وإفلات أعصابه، وذلك بالساح لزوجته مجاذبته الحديث، وهي تجار تضرعا في الفكك والتخليص، لكن حصافة الشيخ ووعيه بتباين مستوى القدرات العسكرية بينه وبين المغير، جعلته يتالك وجدانه، ويكتفي بمناوشة التجريدة البرتغالية ومشاغلتها، وفي الوقت نفسه يترصد اللحظة المواتمة لهجوم مئمر، وما إن رمق خلع القائد "دي أتايد" لأزرار سترته من حمة الجيد، حتى وجه صوبه في لمح البصر- نصل رحه في دقة متناهية، أرداه في توها صريعا، ما أدى في ذهول مقتل "دي أتايد" ورهابهم من المشهد، إلى ارتباك شديد في تجريدة الغزاة، وقد زادهم خبالا تنازع بعض القادة على من يخلف "دي أتايد" في القيادة العامة للجيش، وانقلاب جنود القبائل الدكالية (الغربية والشرقية وعنده) المشاركة في الحملة، حيث قادوا هجوما مشتركا على الكتائب البرتغالية، أسفرت عن مقتل أعداد حمة من البرتغال، وأسر 35 منهم، بينهم قائدان، وتحرير كل أسرى القبيلة واستعادة الغنائم، واغتنام الأسلحة والعتاد الذي كان بحوزة البرتغال²²، فقلب الشيخ الهزيمة نصرا، بعدما أبان عن عزم وجلد وذكاء، خطبهم صرح ملحمة جهادية ركيئة، ما فتئت الناكرة المحلية تجترها بفخر واعتزاز. كما تجتر بالشعور نفسه مشهد إرداء يحي أو تعفوت غيلة، جزاء تفانيه في خدمة المصالح البرتغالية في المنطقة، وقيادته لأكثر الحملات الإرهابية

المُسيرة لتطويع القبائل وانبطاحها للمحتل، فلما أزمع احتلال مراكش سنة 1519م، أرسل يطلب من قبيلة أولاد عمران تعزيزات عسكرية بعد أن رفض الحاكم "نون دي ماسكاريناس" تزويده بالخمسة مائة رمح والمدفعين الذي طلبهم لإنجاح الغزوة، واكتفى بمنحه خمسين فارسا، بيد أن القبيلة امتنعت عن تلبية طلبه²³، وقررت تصفيته وشلّ شره عن مراكش، وعقب وصوله "للملاحات" الواقعة على مقربة من مضارب قبائل عبدة، بلغه مقتل بزوان أحد قواده بأولاد مُطاع، ونهب القبيلة وسلبها على يد فرسان الأمير إدريس (أمير قسم من جبال الأطلس المتوسط) المنحدرين من قبائل سكورة وتادالا، فقرر أن يذهب في وفد بصحبة ثلاثة شيوخ من القبائل المتحالفة (هم: محمد موزاند و يعقوب الغريبي وبونيرة) لتقديم التعازي لأخيه عزّو شيخ قبائل عبدة وتقديم هدايا المودة والمواساة. وفي الوضيمة وأثناء تحلقه حول مائدة العشاء، دخل عليه شخصان يدعيان عسو وغانم ادعيا أنها شيخان من قبيلة أولاد عمران جاءا لتعزيته وتقديم العون لمحلته، وما إن آنسوا غفلة منه حتى وهجوا إليه طعنات قاتلة أسقطته يلفظ أفساسه الأخيرة، وبمجرد علم أولاد عمران باغتياله، قاموا بالإغارة على جنود المعسكر قتلا ونهبها²⁴، ما اضطر فلول الحملة إلى الفرار صوب آسفي، وفي الطريق انقلب جنود الغريبة على البرتغاليين وراغوا يقتلون فيهم²⁵، ثم يم الجمعان (أولاد عمران وفلول الغريبة) وجهها شطر أعراب الغريبة لرص الصفوف ضد النفوذ البرتغالي في المنطقة والتخيط لثورة جديدة²⁶، غير أن عامل آسفي استطاع إخماض تديريهم في حملة تمكن خلالها من قتل خمسمائة دكالي وأسر ستائة وخمسين آخرين²⁷.

وقد عد مقتل يحي أوتعفوفت في هذه الظرفية خسارة كبيرة للبرتغال، إذ رزئوا في عميل حارب في سبيل بسط نفوذهم على مناطق دكالة والحوز والشياظمة، وامتلك من الجرأة والغلظة والدهاء ما طوع بهم القبائل لإرادة المحتل، وما أوقع هزائم مريعة بالحملات المغربية المُستنقرة لتحرير دكالة، ففي سنة 1514م رد الجيش الوطاسي على أعقاب خائبا إلى عاصمة فاس، وبعد ثلاث سنوات (1517)، أوقع هزيمة بالناصر الهنتاتي صاحب مملكة مراكش، وبصنوه أمير الجبل في السنة نفسها، كما نجح في قطع دابر سلطة الناصر الهنتاتي في المنطقة، وتعتبر جهود السعديين في بسط سلطانهم شمال تانسيفت والتحالف مع قبائل دكالة²⁸.

فبعد اغتيال القائد يحي أوتعفوفت، سهل على السعديين اختراق التحالف الدكالي البرتغالي الذي كان يرعاه الهالك ويفرضه على القبائل²⁹، ونجحوا في إعادة دكالة من جديد إلى صفوف الجهاد ضد المغتصب، ولم يسجل منذ أن بدأ السعديون في دعم الجهاد الدكالي بالسلح والعتاد، أن انقلبت قبيلة وأعلنت دعمها للظغمة المحتلة، وهذا ما أفادت به إحدى التقارير البرتغالية المبعوثة سنة 1519م إلى العاصمة ليشبونة، تنذر بزوال السيطرة البرتغالية عن قبائل دكالة³⁰، بعدما أكدت أن كل قبائل دكالة

صارت خارج دائرة الخضوع³¹، وهذا ما يعضد أطروحة أن الدكالي لم يكن ليخضع لغاصب إلا تحت الإكراه وقلة الحيلة³².

وقد شكل انتصار السعديين بالجنوب على البرتغال، وتحرير أكادير سنة 1541م منعظا هاما في تاريخ الصراع المغربي البرتغالي، إذ ترادفت على إثره انتصارات السعديين وتحرير بعض الثغور المحتل، فعقب هذا الانتصار، قاد الدكاليون بتنسيق مع الشرفاء تحرير ثغري أزموور وآسفي وأرباضها مستهل سنة 1542م³³.

وقد أدت الحركة الصوفية دورا وازنا في في تقوية العزائم واستنفار الهمم وجمع الكلمة، بل تصدرت صفوف المجاهدين والشهداء الذين سقطوا في معركة تحرير أزموور، ولعل من بينهم:

❖ سيدي عبد الله بن مسعود الفكك، دفين المقبرة المحادية لضريح مولاي بوشعيب

❖ سيدي غالم المشهور بسيدي غانم، المجاور جدته لثانوية مولاي بوشعيب

❖ سيدي الضاوي دفين زقة دار الصابون بالملاح.

❖ سيدي علي المشهور بسيدي علامو، دفين طريق القرعة بحي الزاوية الجديدة

❖ سيدي داود الكائن جدته على مشارف السور برأس درب العرسة

❖ سيدي عثمان صاحب الحدث الذي يفرق درب سيدي أحمد الجعيني ودرب الجبلي³⁴.

أما في مازيغن بالمنطقة الوسطى فقد تزعمت زاوية سيدي سعيد المشتراي ورباطي سيدي بنور والجمس الجهاد ضد محتلي المدينة³⁵، واشتهر الشيخ سيدي إسماعيل بن سعيد المشتراي بالحماسة في مقارعة البرتغال، "ذابا عن حوزة الإسلام مناخا عنه ضد من استمطال عليه³⁶" حتى إن والده الشيخ سيدي سعيد المذكور، نزل له في حياته عن إدارة الزاوية وقيادة مجاهديها، وما إن وفد المرید محمد بن أحمد المالكي الزياني المشهور بالعيشي على دكالة بتكليف من شيخه سيدي عبد الله بن حسون سنة 1604م³⁷ حتى اتصل بالشيخ إسماعيل للتنسيق معه في مجابهة البرتغال، وتشيد المظان التي تناولت المهمة التي أنيطت به في دكالة، ببلائه وقوة بأسه في مharشة المحتل، وفي هذا الصدد يقول اليفريني: "ولم يزل ماثرا على الجهاد شديد الشكيمة على العدو، عارفا بوجوه المكائد الحربية، مقدما في مواطن الإجمام صموذا وقورا ذا بطش شديد، فطار بذلك صيته وشاع بين الناس ذكره بما هو عليه من التضيق على العدو. واتهى به الأمر إلى أن عين قائدا لأزموور، فحاض المعارك بجلد لا يقهر وضيق على برتغال الجديدة أشد تضيق، وحاصرهم في المدينة، وغنم ماشيتهم ومنعهم من حرث أراضيهم، ولكنه فر بنفسه إلى سلا في 1614م حينما علم أن السلطان مولاي زيدان أصبح يرتاب في أمره"³⁸ فلما وجه المولى زيدان قائده محمدا السنوسي لقتله في أربعائة ألف فارس، أوفد للعياشي خفية، أن انج بنفسك فإنك مغدور، وبمجرد أن

توصل بضحوى الرسالة حتى خرج في أربعين فارسا صوب سلا.³⁹ لكنه عاد سنة 1640م بعدما استقل بسلا وأصبح حاكما عليها، حيث أغار على ثغر البريجة وأفنى منهم كتيبة قوامها 139⁴⁰ فلم ينج منها سوى سبعة وعشرين برتغاليا، ثم اقل عائدا إلى إمارته استعدادا لكرة أخرى، جارا معه ثمانية عشر- أسيرا⁴¹، بيد أن القدر لم يمهله لمواصلة الجهاد بدكالة، جراء اغتياله في ظروف لم تسعنا المظان في الإلمام بملاساتها، غير أنها أحاطتنا بالأسباب التي دفعته للعودة إلى المنطقة رغم أنها لا تدخل في مجال سلطانه، وفي ذلك يقول اليفرنيني: "...إن أهل البريجة عقدوا المهادنة مع أهل أزمور مدة، فكان من عزة النصارى وذلة الإسلام في هذه المدة ما تنفطر منه الأكداد وتختر له الجبال، فمن ذلك أن زوجة القبطان خرجت ذات يوم في مخبتها ومعها حاشيتها إلى أن وصلت حلة العرب، فتلقاها أهل الحلة بالولاول والفرح وصنعوا لها الأطعمة وحملوا لها الهدايا من الدجاج والحليب والبيض، فظلت عندهم في فرح عظيم، ولما كان الليل، أمرت زوجها أن يخرج جيوشه ويبحث لقائد أزمور ليخرج بجيوش المسلمين فيلعبون فيما بينهم، وهي تنظر إليهم وتتتزه فيه، فكان ذلك، فجعلوا يلعبون، فما كان إلى أن حمل كافرا على مسلم فقتله، فكلم الولي القبطان وأخبره بما وقع، فقال القبطان: "فما يضركم إن مات شهيدا"، بهزأ به ويسخر من المسلمين، وكان سيدي محمد العياشي كلما سمع شيئا من ذلك تغير وبات لا يلتذ بطعام ولا بمنام، وهو ينظر كيف تكون الحيلة في زوال المعزة عن المسلمين وغسل أعراضهم من سخر الإهانة، وكان قد أصبح رئيسا لإمارة سلا، فتوجه للبريجة في رابع صفر عام تسعة وأربعين وألف، وهاجم الأعداء وقضى- على كتيبة لم ينج منها سوى سبعة وعشرين شخصا، ورجع إلى سلا حيث تم اغتياله⁴² "

وحين أزمع المجاهد العياشي العودة على مضض إلى سلا سنة 1615م، أراد أن يترك دكالة ورباط الجهاد لجب لازب فيها، لا يكل المجاهدون ولا يسكنون عن ترويع المحتل ومهاجمته بين الفينة وأخرى، فلم يجد أفضل من الشيخ إسماعيل يعهد إليه بقيادة الحملات الجهادية، وبث روح الحماسة والتبات في نفوس المرابطين وسعر عزائمهم، وفي هذا الصدد يقول الفقيه الكاونوني: "كان الزعيم أبو الفداء إسماعيل بن سعيد القاسمي صاحب الزاوية على مقربة من الجديدة ممن انضوى تحت لواء الزعيم أبي عبد الله سيدي محمد العياشي في حرب برتغال ثغر الجديدة، ولما ارتحل أبو عبد الله العياشي من هذه البلاد تركه قائما بأعباء تلك المهمة⁴³ " وحين وافته المنية تسلم قيادة الزاوية والجهاد في المنطقة نجده أحمد المجاهد الملقب بمعبر، وظلت الزاوية منتصبة للجهاد ضد المحتل حتى تم تحريرها على يد السلطان محمد الثالث⁴⁴، بمعية أولياء ومجاهدين من مختلف أرجاء المملكة الشريف، أشهرهم مولاي الطاهر الغنيمي أكبر أولياء سطات، و سيدي محمد الضاوي كبير أولياء البيت الشرفاوي في أبي الجعد وشيخ آل وزان. وقد خلّدت المدينة شهداءها الذين استشهدوا في معارك التحرير، حيث أبت الزوايا والأرطة

في دكالة إلا تنصب على بعضهم قبا وأضرحة بيضاء، اعترافا بما قدموا في سبيل تحرير البلاد والعباد من نير الاحتلال البرتغالي، ولعل من أشهرهم:

❖ سيدي محمد الشهيف الملقب بالشلح، الموجود رسمه على الطريق المؤدية إلى سيدي بوزيد.

❖ سيدي سالم، دفن في المرة الأولى بالبرج ثم أعيد دفنه قرب سيدي الضاوي

❖ سيدي بوافي، رسمه بجوار المنار

❖ سيدي الضاوي بوخرية، رسمه موجود بالمويحة

❖ سيدي محمد النخل، يوجد رسمه بحي بوشريط على مرمى حجر من مستشفى محمد الخامس⁴⁵.

ورغم أن النساء إبان هذه الفترة كان محظور عليهن الكر على المحتل، والمشاركة في اقتحام معاقله ومقارعتة في مختلف الأوضاع، فإنهن لم يألن جهدا في استنفار الهمم ورفع معنويات المجاهدين وحثهم على الثبات والمكبرة والإقدام، وفي هذا الشأن ما افكت الذاكرة الدكالية تلوك ملابسات قصة الفتاة التي أصرت أن يكون مهرها رأس أحد فرسان برتغالي البريجة (الجديدة)، فما كان من الخاطب المدعو مولاي حمو إلا أن استكتب قائد أزموور، ملتمسا منه مراسلة حاكم البرتغال على مدينة البريجة، يدعو فيها أشجع فرسان البرتغال إلى المباراة حتى الموت، وما إن قرأ الحاكم مضمون الرسالة، حتى أمر بعقد اجتماع عاجل مع وجهاء المدينة وقواد جيشه، لاستشارتهم في الرد المناسب على الرسالة، فنصحوه بقبول التحدي، على الشروط التالية:

أولا: أن يتعد المناصرون عن فارسهم بخمسين خطوة.

ثانيا: أن لا يبقى على حلبة الصراع إلا متبارزان.

ثالثا: أن يحدد حيز المباراة في خمسين شبرا.

رابعا: أن الشارد عن الحدود المخصصة للمبارزة يصبح عبدا للمنتصر.

خامسا: أن لا يسمح باستعمال غير السيف والرمح في المباراة، ويتأكد من ذلك عدلان من المسلمين وبرتغاليان.

أما وقت وساعة المباراة فقد سمح بتحديدهما من لدن والي أزموور. وبعد أن أذاع الخبر بين صفوف جيشه طلبا في مبارز، تقدم إليه شاب برتغالي في الثلاثين من عمره، أسمر اللون، كثيف الشعر، أسود اللحية، برأسه جرح لم يندمل. وبعد يومين من وصول الرد على الرسالة، تقررت المواجهة وبه تم الإعلام، فحشر— في ظهيرة اليوم المعلوم، جمهور عرمرم من مدينتي أزموور والبريجة لمتابعة الحدث، بحضور الحاكمين. وأثناء التأكد من الالتزام بالشروط المذكورة للمبارزة، وجد مع الدكالي تيممة معلقة على عنقه، فطالب البرتغاليون بشلحها، لكن الدكالي أصر على الاحتفاظ بها بحجة أنها ليست سلاحا، ولا تدخل ضمن الشروط التي قيدها البرتغال لقبولهم للمبارزة، وفي غمرة هذه المهاترة، تعالت عقيرة

الدكاليين بعبارات الله أكبر فتح ربي ونصر، هذه الهتافات سرّبت في قلوب البرتغاليين الرعب والارتباب من أن تتمكّ المكّبرين الحماسة والاندفاع، فميلوا عليهم ميّلة واحدة، فطلبوا إلغاء المباراة، وانسحبوا على عجل إلى معقلهم⁴⁶.

خاتمة

حالما أخفقت الإستراتيجية البرتغالية بدكالة في صناعة عملاء يكفونها مؤونة غزو واحتلال المنطقة، وسلّمت أن لا مناص من إدارتها المباشرة، حتى أزمعت لشبونة على استعمار المنطقة وضبطها مباشرة لعمليات الاستغلال والاستحواذ والاحتكار، وفي غمرة الظروف السياسية الصعبة التي كان يعيشها المغرب آنذاك، تمكن البرتغالي من إخضاع دكالة بسرعة إلى ريقه الاستعماري، ثم طفق يتوغل في تخوم الشياظمة والشاوية والحوز وحاحا رغم إمكانياته البشرية المحدودة، فالفراغ السياسي الذي عاشته دكالة ومناطق أخرى من المغرب، وما آزاه من ضعف السلطة الوطاسية والصراع المحموم الذي جمعها مع الشرفاء السعديين، أسباب وبواعث رئيسة أسهمت بقدر وازن في التذليل للاستعمار البرتغالي والتوطيد له في المنطقة، وإذا ما اعتبرنا دكالة استثناء من حيث زَماعُ التوسع الاستعماري وقوة اتبداحه في المجال، إن قورنت بباقي الكور المغربية التي عاشت المصير نفسه، فإن الاستعمار فيها شهد بالمقابل انتكاسا مطردا بعيد دعوة الشيوخ والفهاء مقاطعة الثغور المحتلة واعتيال العميل يحي أوتعفوت سنة 1519م، وقد استفحل الأمر وتمطى بكله، عقب نجاح السعديين في النفوذ إلى المنطقة ودعمهم للجهد في دكالة، الشيء الذي حدا بالملك "إيمينول" التفكير جدبا في الانسحاب من دكالة سنة 1529م، بعدما تأكد له أن مغارم المنطقة باتت أكثر من مغانها، وأنها بدأت تفقد جاذبيتها ومنافعها التجارية، بعد أن صار الكثير من تجار المنطقة يمنع السلع والبضائع عن البرتغاليين، ويرأ عن التعامل مع المحتل، فالقلب الوضع رأسا على عقب، وأمست المستعمرة عبئا على خزينة المملكة بعدما كانت شريانا يغذي مواردها المالية، لكن قواد الجيش المقربين من الملك أقنعوه بالعدول عن الفكرة.

ولم يشهد أن وهن عزم القبائل الدكالية في الذود عن بيضة موطنها ودينها، أو سكتت عن ضم لحق بها، إلا حين تعدم الوسيلة ولا تجد غير الصبر والانصياع سبيلا، درأ لإيادتها وتقية لصيانة مقدراتها وأرواح أهلها وعشائرها، لكنها تظل ترقب أنصاف الفرص لكسر- قيود الخنوع والامثال، وتربص الدوائر للانتقام من عدوها الجائر كما بينا في معرض هذه الدراسة، وفي هذا السياق أكد المؤرخ البرتغالي "دافيد لوبش"⁴⁷ أن الحزبي والعار الذي شبه الاستعمار في الشعور الجمعي للمغاربة المستعمرين، جعلهم في ترضٍ لايد ضد الاحتلال البرتغالي، ودفعهم إلى كنفهم مملمة صفهم تحت لواء الجهد الذي عقده السعديون، وفي السياق نفسه عد نجاح الشرفاء في قيادة الثورة بحماسة واقتدار، نابع من كون المغاربة أصحاب دين وحضارة ركيته، وفرسانا يتمتعون ببسالة وإقدام، ومهرة في الكر والفر وفنون القتال عز نظيرها بين الشعوب التي تم إخضاعها من لدن الاستعمار البرتغالي. وقد توجت هذه الانتفاضة ضد "البرطقيز" بجلاته من الكور الدكالية وقبائلها سنة 1541م، باستثناء مدينة البريجة (الجديدة) التي ظلت تحت نير الاستعمار رغم محاولات الافتكك الرسمية والعموية التي لم تفتّر طوال هذه الفترة، حتى تم تحريرها على يد السلطان العلوي محمد الثالث يوم 11 من مارس/آذار سنة 1769م.

الهوامش

¹ - دكالة منطقة ساحلية عاصمتها مدينة الجديدة، تقع بين الدار البيضاء شمالا و مراكش شرقا و أسفي جنوبا والمحيط الأطلسي غربا ، وسكانها أغليتهم من أصول عربية من قبيلة بني هلال.

² أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور وقبل 28 غشت**، دار الثقافة، 1989، ص.223.

³Joseph Goulven, **Histoire Economiste du doukkala**. Archive national de Rabat, Carton n°C 1985, p. 12.

⁴ - مؤرخ برتغالي مدنا بأخبار موثقة ودقيقة عن مراحل الغزو البرتغالي وتوسعه في منطقة دكالة، وأحداث مفصلية هامة اغفلتها باقي المظان التي تناولت بالدرس المجال وتطوراته خلال القرن 16م.

⁵ Damiao de Gois, **les Portugais au Maroc 1491-1521**, traduit et commenté par Robert Ricard, Ed.Frontispice, Casablanca, 2013, p.99

⁶ أحمد بوشرب ، **دكالة والاستعمار البرتغالي...**، م.س، ص ص. 364.

⁷ Damiao de Gois, **les Portugais**..op.cit., p.72

⁸ الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983. ص. 124.

⁹ أحمد بوشرب ، **دكالة والاستعمار البرتغالي...**، م.س، ص. 335.

¹⁰ المرجع نفسه، 353.

¹¹Joseph Goulven , « **la conquête d'Azemmour par les portugais** », les Maroc catholique, n°4, 1937, p.14

¹² أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي...**، م.س، ص. 364.

¹³ المرجع نفسه، ص.366.

¹⁴ ديفغو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1989، ص. 84.

¹⁵ أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي...**، م.س، ص. 354.

¹⁶ ديفغو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، م.س، ص. 40.

¹⁷ أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي...**، م.س، ص ص. 214-215

- ¹⁸ عبد الهادي التازي، *أزمور مولاي بوشعيب من خلال التاريخ المحلي والدولي للمغرب*، مجلة المناهل العدد 35، السنة 13، ص.104.
- ¹⁹ Damiao de Gois, *les Portugais...*, op.cit, p.69
- ²⁰ أحمد بوشرب، *دكالة والاستعمار البرتغالي...*، م.س. ص. 351.
- ²¹ المرجع نفسه، ص.355.
- ²² Damiao de Gois, *les Portugais...*, op.cit., pp.162-164.
- ²³ Michaux Bellaire, *Villes et tribus du Maroc, région des Doukkala*, tom 1, Ed Frontis, pice, Casablanca, 1926. p.163
- ²⁴ ديفغو دي طوريس، *تاريخ الشرفاء*، م.س. ص. 51-52.
- ²⁵ Michaux Bellaire, *Villes...*, op.cit., p.164
- ²⁶ ديفغو دي طوريس، *تاريخ الشرفاء*، م.س. ص. 52.
- ²⁷ Michaux Bellaire, *Villes...*, op.cit., p.165
- ²⁸ أحمد بوشرب، *دكالة والاستعمار البرتغالي...*، م.س. ص. 217-219.
- ²⁹ Joseph Goulven, *Safi au vieux temp des portugais*, 1938, p. 113.
- ³⁰ أحمد بوشرب، *دكالة والاستعمار البرتغالي...*، م.س. ص. 235.
- ³¹ المرجع نفسه، ص. 253.
- ³² عثمان المنصوري، "جوانب من المقاومة دكالة للاحتلال البرتغالي"، ندوة علمية بعنوان: دكالة وتاريخ المقاومة بالمغرب، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة دار أبي رقراق، الرباط، 2010. ص. 85.
- ³³ احتلال البرتغاليين للشغور المغربية، مجلة البحث العلمي، العدد 9، السنة 3، ص. 42.
- ³⁴ أحمد عبد الوارث، "التيار الصوفي ومقاومة الاستعمار البرتغالي بدكالة"، ط 2، ندوة علمية بعنوان: دكالة وتاريخ المقاومة بالمغرب، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2010، ص. 94.
- ³⁵ عبد العزيز ابن عبد الله، "التطور الحضاري بإقليم الجديدة"، مجلة المناهل، العدد 27، السنة 10، يوليو 1983، ص. 38.
- ³⁶ محمد الكانوني، *جواهر الكمال في تراجم الرجال*، الجزء الأول، النار البيضاء، 1352هـ، ص.129.

³⁷ عبد اللطيف الشادلي، الحركة العياشية : حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1982، ص.81.

³⁸ اليفرنيني، نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي، مخطوط موجود في الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 7099، ص. 245.

³⁹ ميشوبيلير، تاريخ ناحية دكالة: دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية، الجزء الأول، ترجمة وتعليق محمد الشياطي الحاجي السباعي، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار ألي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2010، ص.168.

⁴⁰Michaux Bellaire, *Villes...*, op.cit., p.169.

⁴¹ Michaux Bellaire, *Villes et tribus du Maroc, Azemmour et sa Baulieue*, tII, ed.

Honoré champion, Paris, 1932, p.80.

⁴² اليفرنيني، نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي، مخطوط موجود في الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 7099، ص. 247-248.

⁴³ محمد الكانوني، آسفي وما إليه قديما وحديثا، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، 1353هـ، ص.81.

⁴⁴ أحمد عبد الوارث (أحمد)، "التيار..."، م.س.، ص.96.

⁴⁵ المرجع نفسه، ص. 97.

⁴⁶ ميشوبيلير، مدينة أزموور وضواحيها، ترجمة وتعليق محمد الشياطي الحاجي السباعي، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطابع سلا، سلا، 1989، ص.263-264.

⁴⁷ مؤرخ برتغالي عاج مجموعة من الوثائق التي بعث بها العميل المغربي يحي اوتغوفت والسلطان السعدي احمد الاعرج وبعض شيوخ قبائل دكالة الى البلاط البرتغالي ما بين سنة 1516 و1526م.